من الأدب الأندلسي :

٤ ـ التوابع والزوابع

بقلم محمد فهمي عبد اللطيف

أتينا في المقال السابق على آراء ابن شهيد في شخصية الأديب، وقلنا إنها آراء صائبة لم يسبقه اليها أحد في العربية، ونريد في هذا المقال أن نستجلي آراءه في الآثار الأدبية، فنتعرف المظاهر التي اعتبرها مسباراً لبراعة الأديب الفنية، واتخذها مقياساً لقوته في الصناعة، وقد اعتبر ابن شهيد لذلك عدة مظاهر دلّ عليها في مواضع متفرقة من « التوابع والزوابع »؛ وأول مادل عليه من هذه المظاهر : المعنى السامي البديع، يختال في اللفظ المشرق السمح. فالأديب عند ابن شهيد لا يبلغ الشأو ولا يستحق اسم الصناعة إلا « بتعمّد كرائم المعاني، وتقحم بحور البيان . . . فيمتطي الفصل، ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة، وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته » ولعل من المعلوم أن قضية « اللفظ والمعنى » كانت من القضايا التي طال فيها جدال النقاد المشارقة، واختلفوا في الأخذ بها بعضاً وكلاً، فاعتبر بعضهم اللفظ وحده مظهراً لبراعة الأديب وقوته، ذلك لأن المعاني مطروحة أمام الناس، فالبليغ من أجاد صياغتها، وأحسن سبكها. واعتبر آخرون المعنى فحسب، فالأديب لا يفضل الأديب ولا يفوقه إلا بجدة أفكاره وغزارة معانيه، ثم استقر الرأي على الجمع بين شقي القضية، فأصبحت براعة الأديب تستجلى في ألفاظه ومعانيه، وأصبح الأديب لا يبلغ منتهى البراعة والقوة « إلا بتعمد كرائم المعاني وتقحم بحور البيان » كما يقول ابن شهيد

وابن شهيد يحب الازدواج في الكلام، ويرغب في المماثلة والمقابلة، ولكنه يكره التزام السجع، ويراه أمْناً لا يليق بفارس البيان، ومن العجيب أنه مع ذلك كان يلتزم السجع كثيراً في أسلوبه، وكأن الرجل قد توقع الاعتراض عليه من هذه الناحية، فأراد أن يعتذر عن نفسه، فزعم أنه التقى بعتبة بن أرقم شيطان الجاحظ [1] فشهد له بأنه خطيب وحاثك للكلام مجيد، ولكن لامه على غرامه بالسجع، فقال ابن شهيد ردّ عليه : « ليس هذا — أعزّك الله — جهلاً مني بأفن السجع وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدمت بلدي فرسان الكلام . . . » ثم ينطلق في الانتقاص من معاصريه فيزعم أنهم لغباوتهم لا يفقهون الازدواج ويكبرون من قيمة السجع، فاضطر أن يسجع حتى يحرك من نفوسهم، ويلج بكلامه إلى قلوبهم، فيقول عتبة : إنا لله، ذهبت العرب وكلامها، ارمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم، ويطير لك ذكر فيهم. وهذه معذرة إن صحت لا نقبلها من ابن شهيد، فليس من حسن الرأي أن ينحرف الكاتب عن طريقة يراها سديدة إلى أخرى مستهجنة ليظفر بالرضى من بعض الناس، وإنما الكاتب العبقري هو الذي ينتهج طريقه ويدع الأذهان تتبصر مسلكه؛ وتتبين خطواته فترسم سيره، وتأخذ أخذه . . .

ولكن ابن شهيد يعود ليستدرك على قضية « اللفظ والمعنى » مظهراً آخر من مظاهر البلاغة، فيرى أن هناك « صوراً من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس، فاذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده، ولجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن . . . وذلك كقول امرئ القيس :

تنوّرتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

فهذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده !! ولكن لها من التملق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى . . »

وهذا كلام حمله ابن شهيد على ما اشترطه في شخصية الكاتب من قوة الطبع وصفاء الروح كما سبق بيانه، ومعنى هذا الكلام أنك إذا تأملت بعض الصور الكلامية الرائعة لا تجد لروعتها أصلاً من جزالة اللفظ أو طرافة المعنى، بل قد تكون سهلة التناول قريبة الغور، ولكن روعتها ترجع الى ما يكمن فيها من القوة الروحية للكاتب، وأكثر ما تتجلى هذه القوة في كلام الله « حين يتحدّث ذو الجلال عن ذاته وصفاته، وقدرته وقوته، وجلاله وعزّته، ولطفه ورحمته، وناره وجنته، ووعده ووعيده،

(١) ذكر ابن شهيد أنه التقى بشيطان الجاحظ وعبد الحميد الكاتب وكثير من شياطين الكتاب والخطباء. وهذا اختراع منه. وإلا فالشياطين لم يعرفوا إلا للشعراء

وإنذاره وإعذاره ، وقد كان لهذه القوة الرائعة الأثر الأقوى فى رياضة العرب واجتذاب نفوسها نحو الاسلام ، وهى التى كانوا يشعرون بوقعها من غير أن يعلموا كنهها [1] » . ومن العجيب أنك تقرأ الأبيات من الشعر العالى أو النثر البديع فتشعر بهذه القوة رائعة ظاهرة تكسو الكلام جلالاً وجمالاً ، فتحاول أن تعبر عنها كما يجب فتجد نفسك عاجزاً مقصراً ، ذلك لأن قوة الكلام لا ترجع فى هذه الحال الى الألفاظ والمعانى ، وإنما هى ترجع الى ما فيه من القوة الروحية ، وقد أخذ بعض الكتاب المعاصرين هذه الفكرة عن ابن شهيد ، وتبنّاها لنفسه ، وادّعى أنها انحدرت من عقله على قلبه ، وهاجم بها الباقلانى فى أقواله فى إعجاز القرآن ، وجادل بها الكتّاب والنقاد الذين تصدوا للرد عليه ! !

وثمت مظهر آخر من مظاهر القوة والبراعة عند الأديب فى رأى ابن شهيد ، وهذا المظهر هو التفنن فى توجيه الخطاب بحيث يكون على وفق أقدار المخاطبين ، والتصرف فى إيراد القول بحيث يكون من السهولة أو القوة على حسب ما يقتضيه المقام ، وقد ذكر ابن شهيد هذه المسألة وهو يشرح ما كان يقع له مع الشحاذين فى قرطبة ، وكيف كان يعينهم بشعره على نيل مآربهم ، فقال : « وربما لاذ بنا المتطعم باسم الشعر ، ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فيصادف منا خالاً لا تتسع له فى صكير مبرة ، فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فاذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، درّ حليبهم ، وانحلت عقدهم ، وجلّ شخص ذلك البائس فى عيونهم ، فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كُمه ، ورقبة سمينة تدسّ فى مخلاته ، وتينة رطبة يسدّ بها حلقومه . . فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغباً فى أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ما عندها له ، وبادرت برفدها اليه . وتعليمه ذلك النحو من الشحذ لا نستطيعه ، لأنه هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب ! ! ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان . . »

وقد سبق أبو هلال العسكرى ابن شهيد الى تقرير هذه الحقيقة بعبارة أصرح وأوضح فقال فى كتابه الصناعتين : « وينبغى أن تعرف أقدار المعانى فتوازن بينها وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى تقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات ، واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ... فان كنت متكلما أو احتجت الى عمل خطبة لبعض من تصلح له الخطب ، أو قصيدة لبعض ما يراده القصيد ، فتخط ألفاظ المتكلمين مثل الجسيم والعرض واللون والتأليف والجوهر ، فان ذلك هجنة . وكذلك كن أيضاً إذا كنت كاتباً »

ولعل بشار بن برد كان أول من دلّ على هذه الظاهرة واستعملها فى شعره من حيث كان الناس يعيبونه بها ؛ فقد جاء فى الأغانى بسنده أن بعضهم قال : قلت لبشار إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت ! قال وما ذاك ؟ قلت بينا تقول شعراً يثير النقع وتخلع به القلوب مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة
ذرى منبر صلى علينا وسلما

تقول :

ربابة ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال بشار : لكلّ وجه ، وموضع الأول جدّ ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة لها عشر دجاجات وديك فهى تجمع لى البيض ، فهذا عندها أحسن من « قفا نبك ... » عندك

وصدق بشار فيما قال ، فان البليغ هو من يحوك الكلام على حسب الأمانى ، ويخيط الألفاظ على قدود المعانى ، وقد تكون هناك مواقف للقول يطلب فيها الأسفاف ، ويحلو فيها التبذل ، فيكون باقل فى عيه وفهاهته ، أفصح من سحبان فى تشدقه ورغائه ، ويقيني لو أن بشاراً توجه فى الخطاب الى جاريته بلثته فى الفخر والحماسة ، لدلّ على الحماقة فى طبعه ، والسقم فى ذوقه ، وزعا ظنت هذه الجارية أنه يشتمها ، فكانت تمنعه بيض دجاجها ، وتحتم عليه أن يشترى البيض من السوق ، فلا يفيده تقعره ، ولا ينفعه شعره ،

(١) الزهرات للشيخ عبد الله عفيفى